41 الشخصية الإنسانية والبعد المغيّب:

أزمة العلوم الإنسانية في تعليمنا الجامعي المعاصر

نزار العاني
- مدير مركز القياس والتقويم والتطوير الأكاديمي، جامعة البحرين.
- ندوة: تفعيل التعليم العالي في خدمة الأمة، أكادير، المملكة المغربية، 9–10 أبريل، 2001.
- مجلة الجامعة، إتحاد جامعات العالم الإسلامي، العدد الثالث، 1423–2002، ص 52–119 [59 صفحة من القطع المتوسط].
- لغة البحث (الكتاب): اللغة العربية.
- مجال البحث (الكتاب): الشخصية الإنسانية – البُعد المغيّب.

❑ ❑ ❑

يوضح الباحث أولاً وفي مقدمته سبب اختياره «الشخصية الإنسانية» لأنها الإنسان بعلم نفسه واجتماعه وأجناسه، و«البُعد المغيّب» لأنها المحور الذي تقوم عليه الدراسة بعد أن طردته الوضعية العلمية الغربية من أشيائها وظواهرها المدروسة (ويعرِّف الباحث البعد المغيب بالوحي أو الغيب).

ولكي يصل الباحث إلى المشكلة من جذورها ابتدأ بالتحولات الكبرى التي طرأت على الساحة الأوربية بعد عصورها الكنسية المظلمة. ثم يحدد هذه التحولات:

1. من الكنيسة اللاهوتية إلى العلمية الوضعية عقب حقب ثلاث متميزة:
   - حقبة الثقافة أو الحضارة اليونانية أو الإغريقية
   - حقبة الكنسية المسيحية (الموحِدة وغير الموحِدة)
   - حقبة إزاحة الكنيسة عن دور السلطان والحكم
2. من الوضعية العلمية إلى الوضعية اللاهوتية

ففي الوقت الذي بنيت فيه المعرفة على مجرد الحدس والمتيافيزيقيا كان التفسير اللاهوتي كافياً لإضفاء شرعيته عليها ثم استبداده بها. ولكن تحول المعرفة إلى الحس والتجربة أقصت اللاهوت وتفسيره آلياً ليبدأ البحث عن

منطق تحليلي وتفسيري جديد يتسق ويتناغم مع التعريف الجديد للعلم وللمنهج العلمي الجديد.

3. من العلوم الطبيعية إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية

ولأن (العلم) كان غاية عصر التنوير الأوروبي و(التجربة) أداة الكشف عن الحقيقة باستخدام الحس والواقع المشاهد، فقد أصبح (المختبر) الكنيسة الجديدة للعلم، (والعلماء) من مخترعين ومكتشفين رهبانها ورعاتها. فانطلق الجميع من فلسفة العلوم الطبيعية مُشيّئين (الإنسان) ومن ثم (المجتمع الإنساني) في بوتقة الإختبار والتجريب.

ثم يدخل الباحث في التمييز بين الظواهر الطبيعية والإنسانية التي اختلطت في المنهج الوضعي، وحاولوا استنباطها كلها من الحس والمشاهدة حسب من ناحية، وتبعية الوضعية الإنسانية للوضعية الطبيعية من ناحية ثانية. ومن هنا - كما يرى الباحث - كان مقتل الوضعية الإنسانية على يد الوضعية العلمية التي قبلت إنتساب الإنسانية لها، فتحولت (العلوم الإنسانية الاجتماعية) إلى علوم طبيعية تجريبية قسراً وتزويراً من غير أية مشاهدات أو بحوث تجريبية لتصبح: الآراء الشخصية قوانين طبيعية، والظواهر الإنسانية مجرد (أشياء) كالماء والتراب، و(الفيزياء) النموذج الذي يجب أن يحذوه علم النفس وعلم الإجتماع.

ثم ينتقل الباحث إلى مناقشة (الوضعية) في مواجهة التحديات، ويركز على:

1. تحديات التفسير، فالأسئلة النهائية (الكلية) التي تثار حول الإنسان والكون والحياة لا تدخل في مختبر ولا تخرج من مصنع. ولأن الوضعية اختزلت الحياة والوجود بأكمله في جانبه المادي فقط فلم تستطع أن تواجه هذه الأسئلة الكلية.
2. تحديات التعميم وهو المطلب الثاني (كما يقول الباحث) للوضعية عندما حاولت تعميم الظاهرة أو الوضعية العلمية على دراسة الإنسان والمجتمع. ولأن الإنسان لا يمكن أن يخضع للتجريب الفيزيائي أو الكيميائي بحجة علمية أو وضعية علم النفس فقد استخدمت الحيوانات

في التجارب ليعّمم منها على السلوك الإنساني.

3. تحديات الماورائيات حيث كانت وما زالت ظواهر كثيرة تحدث بأشكال مختلفة لم تستطع الوضعية إعطاء الإجابات والتفسيرات لها فأدخلتها في باب الظواهر (الخارقة) و(غير الطبيعية) لتضمّها جميعاً في علم جديد سمي بعلم (ما وراء النفس أو ما وراء الطبيعة parapsychology، فقد خصصت موسوعة (هويسمان) الجزء الخاص منها بأكمله لظواهر الماورائيات التي عجزت الوضعية عن تفسيرها.

4. البحث عن نهاية التيه، ذلك التيه الذي وقعت به الوضعية عندما استعاضت عن الخلق المباشر بالتطور، وعن الغائية بالصراع، وعن خلود الروح بفناء البشر.

5. فالوضعية – على لسان أهلها – في تيه وأزمة وبحث جديد وحثيث للخروج منها.

ثم يعرج الباحث إلى متاهات الشخصية الإنسانية ويحدد أنماطاً أربعة لهذه المتاهات:

1. الشخصية ومتاهة المنظورات النفسية

فالدراسات النفسية يغيب عنها الإطار النظري الموحد من جهة، وتضطرب أطرها النظرية لتفسير النفس أو الشخصية لحد التناقض بينها من جهة ثانية.

2. الشخصية والبُعد المغيّب (من الثنائية إلى الأحادية النفسية)

ويبدأ الباحث باستعراض الثنائية اليونانية (النفس – البدن) إلى الثنائية الإسلامية (الجسد – الروح). إلا أن الكنيسة أزاحت الثنائية إلى أحادية (الروح فقط)، لتأتي الوضعية إلى أحادية نقيضة (الجسم فقط)، حيث كفرت: بالروح أولاً، وبالعقل ثانياً على يد السلوكية، لتجعل الإنسان مادة تعبث به قوانين الإنعكاس الشرطي وسلوكيات المثير والإستجابة كل همه إشباع غرائزه وحاجاته.

3. الشخصية ومتاهات السواء واللا سواء

فإضطراب الإطار النظري وتعدده انسحب إلى المعايير التي تحكم على

السلوك السوي مميزاً عن السلوك غير السوي ومن الشخصية السواء إلى اللاسواء (يناقش الباحث الاختلاف أو متاهات المعايير).

4. الشخصية ومتاهات العلاج النفسي

فليس هناك اتفاق في علم النفس الغربي بكل مدارسه ونظرياته على مفهوم موحد للصحة النفسية (ثم يستعرض مفاهيمها وطرق علاجها المتباينة والمتناقضة في مدارس علم النفس المختلفة، بتفصيل طويل وتدليل متعدد).

بعد ذلك ينتقل الباحث إلى الساحة العربية والإسلامية ليتحدث عن واقع العلوم الإنسانية في تعليمها الجامعي المعاصر، ليبدأ بالحقبة الاستعمارية في القرنين الأخيرين، والتوجه الاستعماري التغريبي للأمة عن طريق تعليمها وجامعاتها بدءاً بالمستشارين الاستعماريين ثم تحويلها إلى (وضعيين) عرب ومسلمين دربوا وأعدوا على يد المستشارين ليصبحوا وضعيين مغالين حتى عن أهل الوضعية أنفسهم.

ثم يتحدث الباحث بعد ذلك عن إسقاط (العقم العلمي الكنسي) في القرون الوسطى على دينامية الفكر الإسلامي. ليبدأ بالتسلط الدنيوي ثم التسلط العلمي والفكري ثم التسلط الديني.

ثم يتكلم الباحث عن العلوم الإنسانية (كمندوب سامي) للاستعمار العالمي الجديد، أي تسخير العلم والفكر والثقافة كمداخل للاستعمار الغربي سواءً ببزته العسكرية أو المدنية أو التعليمية أو الإعلامية وأخيراً الاقتصادية والتجارة الحرة وحقوق الإنسان. ويرى الباحث أن (العلوم الإنسانية) هي المحور الرئيس لأي تسلل فكري وثقافي.

* ثم يحاول الباحث أن يبحث عن (البديل) من خلال أبعاد التعامل مع المشكلة، ويحدد ذلك في عوامل أربعة:

1. الأصول والتراث، ويستعرض الباحث ويستفيض في اتجاهات التعامل الإسلامية المتعددة مع التراث، وكيف استطاع علماء القرون الإسلامية الأولى فهم واستيعاب وتصنيف العلوم الأخرى وإفراز الغث عن السمين

منها، مع معايرتها دائماً بالأصول والثوابت الإسلامية للحكم عليها بعقلية متفتحة متوثبة للعلم والمعرفة والحكمة.

2. العلوم ومناهج البحث المعاصرة

فالحكمة ضالة المؤمن وهي نتاج مجمل كل العلوم وليست حكراً على شعب معين أو حضارة معينة أو زمن معين أو أتباع دين معين، فالحضارة نتاج تراكمي على مر الدهور والعصور. ولأننا أمرنا بأن لا نبخس الناس أشياءهم - كمسلمين - أولاً وباتباع العلم ثانياً، فلا يمكن أن نقف ضد علم من العلوم أو رأي من الآراء أو ثقافة من الثقافات بسبب أنها بعيدة أو غريبة عنا حسب. إلا أن المطلوب من المسلمين هو التمحيص والإنتقاء وإبداع البدائل.

فالعلوم الإنسانية - وخاصة في تعليمنا الجامعي - يجب أن تخضع لقيمنا وظواهرنا وعيناتنا وأدواتنا ومقاييسنا ومعاييرنا وتجاربنا وخبرائنا، وقبل كل ذلك لعقيدتنا وفكرنا ومنهجنا.

3. وللبديل بدائل

حيث يطرح الباحث البدائل المطروحة على الساحة لأسلمة العلوم الإنسانية والاجتماعية وعلم النفس ليعرض نماذج متعددة منها: منهج (اسماعيل الفاروقي) كنموذج رائد لأسلمة العلوم الاجتماعية (وجهة نظر عالم اجتماع)، وبديل (الشيخ طه جابرالعلواني) من وجهة نظر عالم شرعي، وبديل (محمد أبو القاسم الحاج حمد) من وجهة نظر معرفية، ويستعرض ثم يناقش كل بديل منها بالتفصيل.

* ثم يختتم الباحث ورقته بمعالم المستقبل المنظور:

فالعلوم الإنسانية في تغير مستمر والمؤثرات البيئية تتغير بتسارع كبير، وشعور الوضعية الغربية بأزمتها يتعمق يوماً بعد يوم ومحاولاتهم الفكرية والفلسفية والعلمية الجادة المنفتحة للخروج من أزمتهم لا تكل ولا تمل فهم (أي الغربيون) أهل عقل منفتح وفكر مستعد للتلاقح وصدر رحب للأخذ والعطاء.

وهنا علينا - كما يطالب الباحث - أن نستثمر هذه العقلية المنفتحة والصدر الرحب وشعورهم بأزمتهم التي تكاد تسحق الإنسان الغربي في قيمه وأخلاقه وعلاقاته بل وحتى في صحته النفسية وراحته الجسدية، أن نستثمر كل ذلك لبلورة إطارنا الفكري باتجاهات عامة وخطوط عريضة لتقديمه كبديل من البدائل المطروحة في ساحتهم لحل أزماتهم الفكرية والاجتماعية والأسرية والأخلاقية.

ويقيناً، باعتقاد الباحث، ومتى ما قدم لهم هذا الإطار أو البديل في (أطباقهم) وباستخدام ذات (معالقهم وشوكهم) فإنهم لا شك سيستسيغون مذاق فكرنا، لأن المنهج البديل هو منهج (رباني) يتطابق تماماً دون أي شك أو ريبة مع فطرة الله التي فطر الناس عليها: فالخالق واحد، والخلق واحد، والفطرة واحدة.

❑ ❑ ❑

عناوين رئيسة:

أسلمة العلوم الإنسانية، أزمة العلوم الإنسانية، التعليم الجامعي المعاصر، بدائل لأرضية مشتركة لأسلمة المعرفة.

❑ ❑ ❑

ملاحظات:

كاتب (المَسَرد) هو صاحب البحث المعروض أعلاه، ويود من الآخرين أن يقدموا ملاحظاتهم عنه.